****

 **خَوَاطِرُ قَلْب**

**(أحداث كورونا 2020م)**

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، يخلق ما يشاء ويختار؛ قال تعالى:" يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ " سورة النور: 44

و أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، النبيّ المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ التدبر والاعتبار، أما بعد فإن كثيرًا من الناس يفهمون عبادات الجوارح ويؤدُّون الشعائر، لكنَّ قليلًا من يفهمون عبادات القلب.

معنا خلال هذه الدقائق المعدودة؛ عبادةٌ قلبية عظيمة عند البعض مفقودة، عبادةٌ قلبية لا تحتاج إلى عناء، لا يحدُّها زمانٌ ولا مكان، بل هي معك في جميع تقلبات حياتك، في الإقامةِ والسفر، في الصحةِ والمرض، في الليلِ والنهار حتى وأنت على فراشِك.

 عبادةٌ جالبةٌ لمحبة الرحمن وطاردةٌ لوساوس الشيطان ورادعةٌ عن العصيان، عبادةٌ بها تطيبُ النفس، وينشرحُ الصدر ويشتاقُ القلبُ إلى الربِّ جلّ في علاه، عبادةٌ غفلَ عنها الكثيرون؛ إنها عبادةُ التفكر والتأمل وهو إعمال الخاطر في الشيء والنظرُ والتثبتُ فيه، تدقيق النظر في آيات اللهِ المسطورة في كتابِه والمنثورة في كونِه وخلقِه، نظرًا يُفضي إلى معرفة الله -عز وجل-، إلى حبِّه وخشيتِه.

هذا التفكرُ والتأملُ من أعظمِ العباداتِ القلبية، بل هو المُحَرِكُ لأعمالِ القلبِ والجوارح.

قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-:" وأحسنُ ما أُنفقتُ فيه الأنفاسُ التفكرُ في آياتِ الله وعجائبَ صُنْعِه"

فالكون كله دالٌّ على وحدانِيَّتِه سبحانَه، دالٌّ على أسمائِه وصفاتِه

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإِلَهُ \*\*\* أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وَلِلَّهِ في كُلِّ تَحريكَةٍ \*\*\* وَفي كلِّ تَسكينَةٍ شاهِدُ

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ \*\*\* تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ الواحِدُ[[1]](#footnote-1)

والتفكُّرُ في آياتِ الله من أفضلِ أعمال القلوبِ وأنفَعها، وهو من خيرِ ما يُوعَظُ به العباد، قال – سبحانه -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ: 46).

والقرآنُ العظيمُ مملوءٌ بآيات فيها حثَّ العباد على التفكُّرِ في الآياتِ والنظرِ في المخلُوقات، قال – عز وجل -: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: 185).

 التفكر في مخلوقاته، في أفعاله وأحكامه، في آياته وكلامه

قال تعالى:" قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ.. " سورة يونس:101

قال تعالى:" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " سورة آل عمران: 190-191

في أحكامه:

قال تعالى:" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا " سورة البقرة: 219

فحرّم الخمر وختم الآية بقوله " كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"

في آياته وكلامه:

قال تعالى:" إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" سورة الزخرف: 3

في سنة نبيّه صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى:" وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " سورة النحل: 44

في أنفسنا وأحوالنا:

قال تعالى:" أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم" سورة الروم:8

 في نبوةِ نبيّنا-صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى:" قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" سورة سبأ: 46

في الأحداث التي تجري من حولنا وأقدار الله لنا:

تأمل قول الله تعالى:" حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " سورة يونس:24

و كان مبدأ النُّبوة حين كان صلى الله عليه وسلم يجلسُ في غار حراء يتحنَّثُ ويتفكرُ ويتأمل، وكذلك كان أصحابُه، عن ابن عباس -رضي الله عنه-:" ركعتان مقتصدتان في تفكرٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب"

و عن عامر بن قيس قال: سمعت غيرَ واحدٍ من أصحابٍ محمدٍ صلى الله عليه وسلم يقولون: " إن ضياء الإيمان التفكر"

و على قدر التأملِ والتفكرِ تكونُ حياة القلب وهدايتُه، ويكون الامتثالُ والطاعة، وإذا أضاء القلبُ واستنار؛ انعكس ذلك على الجوارح نشاطًا في العبادة وتلذذًا بالطاعة.

 وجاء في فضل من تفكَّرَ وتأمَّل في الصحيحين:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ:........ وذكر منهم:" ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[[2]](#footnote-2)

قال سفيانُ بنُ عُيينة -رحمه الله-:" إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ

 فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ "

نزهةُ المؤمنِ الفِكَر \*\*\* لذةُ المؤمنِ العِبَر

رُبَّ لاهٍ وعمرُهُ قد تقضَّى وما شعر

و قال الحسن -رحمه الله- " تفكر ساعة خير من قيام ليلة"[[3]](#footnote-3)

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: "إِنِّي لَأَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِي، فَمَا يَقَعُ بَصَرِي عَلَى شَيْءٍ إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فِيهِ عِبْرَةٌ"[[4]](#footnote-4)

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي: "لَوْ تَفَكَّرَ النَّاسُ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا عَصَوْهُ".

(وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَشَرْعِهِ، وَقَدْرِهِ، وَآيَاتِهِ، فَقَالَ: "وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ" [يُوسُفَ:105-106]، وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَائِلِينَ: رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطلًا)[[5]](#footnote-5)

نسأل الله تعالى أن ينير قلوبنا بنور الإيمان.

**الخاطرة الأولى:** اللهُ ربُّ هذا الكون، الخالقُ المالكُ الرازقُ المدبرُ، الذي لا يكون في ملكهِ إلا ما يريد فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

 وأن اللهَ -تعالى- له في كونِه آياتٌ وله جنودٌ، يُقدّر أمورَ الكائناتِ على ما اقتضتْه حكمتُه وسبقتْ به مشيئتُه، يقضي في ملكه ما يشاءُ ويحكم بما يريد، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يعزُّ ويذل، يُمْرٍضُ ويُشافِى، يبتلي ويُعافي، قال تعالى:" يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ " (سورة الرحمن: 29)

فأنواعُ التدابير نازلةٌ من عنده، وجميعُ الخلقِ مذعنونَ لأمرِه خاضعونَ لعظمتِه وسلطانِه.

لو تأملنا في أحداث الأشهر القليلة الماضية، وجدنا أنه: على حينِ غفلة من الناس وانتشارِ المعاصي والفتن وانتشارِ الخرافات والبدع، استيقظَ الناسُ على حدثٍ أرَّقَ مضاجعَهم وأرعبَ قلوبَهم وشغلَ مساحاتٍ كبيرة من حياتِهم وعطَّلَ مصالحَهم؛ إنه هذا الفيروس الذي لا يُرى بالعين المجردة، من أجله أُغلقتِ المطارات، وتعطلتِ الصناعاتُ والتجاراتُ وزادت التحذيرات وتوقفت معظم مظاهر الحياة، وزادَ عدد الإصابات والوفيات، وخرجَ وزراءُ العالم المتقدم يقولون:" فقدَنا السيطرة وليس أمامنَا إلا أن تتدخل السماء "[[6]](#footnote-6)

أين التقدم والتكنولوجيا الحديثة؟

أين الاقتصاد العالمي الذي يُؤمِّن هذه الدول؟

أين وسائلِ الطب المتطورة؟

عجبًا لأمر هؤلاء الذين نسُوا اللهَ في كل مظاهر حياتِهم، الآن أدركوا ضعفَهم ونسوا كلَ ما عندَهم وعلموا أن اللهَ وحده هو القادرُ على أن يكشفَ ما حلَّ بهم.

هنا تذكرتُ قولَه تعالى:" قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ " (سورة الأنعام 40-41)

عَلِّقوا القلوبَ بالله فهو القادرُ دون ما سواه، وهو الذي يُلجأ إليه في الشدة ويُتوكل عليه عند الحاجة، فالتوكل عليه سبحانه من لوازمِ الإيمان، قال تعالى:" وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (سورة المائدة:23)

أهلُ الإيمان متعلقونَ بربِّهم دون من سواه لعلمِهم أنه المتفردُ بتدبيرِ شئونِ الخلقِ وتصريفِ أحوالِهم، يعتمدونَ عليه في جلبِ مصالحِهم ودفعِ مضارِهم لعلمِهم بتمامِ كفايتِه وكمالِ قدرتِه وعميم إحسانِه، قال تعالى:" وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ " ( سورة الطلاق:3)

أتوكلُ عليه سبحانه في صلاحِ قلبي وصلاحِ أحوالي، في هدايةِ وحفظِ أولادي، في إنجازِ مَهَامِّي وأعمالي، لا أتعلقُ بسواه لا بأبٍ ولا بزوجٍ ولا بأمٍ ولا بولدٍ، فالجن والإنس يموتون، قال تعالى:" وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ " ( سورة الفرقان: 58)

هذه حقيقة التوكل ( انطراحٌ للقلب بين يدي الربِّ ينقطع به عن الأسباب ويتعلق بربِ الأسباب، هذا هو نصفُ الدين ومفتاحٌ للخير والتمكين) [[7]](#footnote-7)

هكذا المتوكل على ربِّه منشرح الصدر مطمئن القلب لا يحزنُ على الماضي ولا يخشى من المستقبل مفوّضًا أمره لله، حَسِن الظن بمولاه موقنًا أن ما قدّره الله له واقعٌ لا محالة وأنه له خير.

**الخاطرة الثانية:** تأملتُ حينَ كُنَّا ننعمُ بحلقات القرآن وجلساتِ العلم، حينما كُنَّا نمشي هذه الخطوات إلى المساجد لأداء الصلوات، وحضور الجماعات، وصلاة التراويح في رمضان، حين كُنَّا نلتقي في بيوت الله. تحفُّنا الملائكة وتغشانا الرحمة ويذكُرنا الله فيمن عنده، حينما كنا نتنفسُ عبيرَ الأخوة ونستشعرُ فضلَ الصحبة إنها بلسمُ الحياة، زينةٌ في الرخاء، وعدّةٌ في الشدة والبلاء؛ إخواني إن جلستُ معهم نفعوني، وإن شاورتُهم نصحوني، وإن غبتُ عنهم حفِظوني، هذه المرايا التي نرى فيها عيوبَنا، ليتنا صُنَّا هذه النعمة، وحفظنا هذه الأخوة.

فجأة أغلقت المساجد وتعطلت الجماعات وحُرمنا صلاة القيام في المسجد في ليالي رمضان وحُرمنا لذةَ الصحبة ونعيمَ الرفقة، كم صارتِ الحياةُ مُرةً بعيدًا عن تلك الصحبة! كم في ذلك الموقف من خواطر وعِبر!

و كأن سائلًا يسأل من أين كلُّ ذلك؟ لماذا حصل؟

فهذا هو الجواب؛ قال تعالى:" أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى ٰهَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ " (سورة آل عمران:165)

قال تعالى: " وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ " ( سورة الشورى: 30)

ليس كلُّ ذنبٍ يُؤاخذنا الله به، بل أن الله يعفو عن كثير من العقوبات المترتبة على هذه الذنوب التي نفعلها، هذا من رحمة الله -عز وجل-

• وماذا ينتظر العالمُ بعد كلِ هذه المظالم؟

ماذا ينتظر المسلمون بعدَ انتشارِ العُري والزِّنا والرِّبا والفواحش؟

قال تعالى:" ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (سورة الروم: 41)

روى الطبراني في المعجم الصغير وصححه الألباني عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما اختلج عِرْقٌ ولا عينٌ إلا بذنب وما يدفعُ اللهُ عنه أكثر"[[8]](#footnote-8)

إن هذه المصائب بمثابةِ الإشارات والتنبيهات، وهي آياتٌ للإنذارِ والتخويف، قال تعالى:" وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا " (سورة الإسراء: 59)

لذا يجب علينا الرجوع والامتثال والاستقامة قبل فوات الأوان

و هل نحن في معزل عن هذا الواقع؟

هل نحن مبرءُون من العيوب؟ أو معصومونَ من الذنوب؟

فلنُراجع أنفسَنَا وأحوالَنَا مع الله، هذه الأمراض التي كادت أن تفتِّكَ بنا، لا أعني أمراضَ البدن، بل أمراضَ القلوب؛ الحقد والحسد، سوء الظن والتهام الناس بالباطل، الرياء والعجب، حب الظهور والغرور والإعجاب بالنفس، أليست هذه الأمراض موجودة بيننا؟

ألسنا نقع أحيانًا في الغيبة والنميمة والشحناء والتنافر؟

أما آن لنا أن نعود إلى سابق عهدِنا؟

من الحب والائتلاف والودّ والاتفاق.

كان أولى لنا قبل أن نطهّر أيدينا وأبدانَنا خوفًا من كورونا أن نطهِّر قلوبَنا التي أجهدها المرض وأعياهَا الشِّقاق، ليْتنا فهِمنا لماذا حُرمنا؟

و إن تنازعْنَا لأجلِ مناصب أو وظائفِ أو مسميات فماذا إذن تركنا لباقي الناس، إن تنازعْنَا ونحن أهلَ الدعوة؛ فماذا تركنا لأهل الدنيا؟

*ثم تذكرتُ هذا الحديث وخطر بقلبي هذا المعنى العظيم:*

" طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بعِنَانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إنْ كانَ في الحِرَاسَةِ، كانَ في الحِرَاسَةِ، وإنْ كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ له، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ."[[9]](#footnote-9)

**طوبى:** اسم للجنة واسم لأكبر شجرة في الجنة، كلمة ثناء ومدح في اللغة، العيش الطيب والهنئ.

كل هذا لمن؟ لعبد؟ ما هي صفاته؟

إنه عبد من نوع آخر ليس كباقي الناس.

إنه عبدٌ لسيد واحد، عبدٌ لربِّه، لم تتشعب به الدنيا فيكون عبدًا للدرهم أو الدينار أو الشهوات أو الأهواء أو حظوظِ نفسه .

**آخذ بعنان فرسه في سبيل الله:**

دائمًا مستعد، حاضر، مجاهدًا في سبيل الله؛ هذه حياته ليس منعمًا ولا مترفًا ولا حريصًا على الدنيا.

**أشعت رأسه مغبرًا قدماه:**

 يسير في الطريق يثابر ويصابر، حيثما وُضع نفع وحيثما عُيِّن رضى وصبر.

**إن كان في الحراسة:**

 قيل له احرس مع مشقة الحراسة وما فيها من سهرٍ وتعب ومسئولية.

**كان في الحراسة:**

قائمًا بحقها، مؤديًا ما عليه، غير مقصرٍ بنومٍ أو غفلة.

**و إن كان في الساقة: (مؤخرة الجيش)**

مكان لا يتمنَّاهُ الناس لأنه مكان خمول ذكر، فسواء وُضع في المقدمة أو في المؤخرة أو في شيء شاق أو مهمة الجندي المجهول، ليس عليه أنظار ولا أدوار ولا يبرز اسمه.

يمشي خلف الجيش يحرسُ آخرهم ويلتقط ما يسقط من متاع، مهمة شاقة أو مهمة ليس فيها أضواء، إنه عبدٌ خامل الذكر، لا يقصد السمو، يتحمل المشاق، نيته خالصة لا يسعى لأن يكون له مكانة بين الناس

**إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع.**

"كلماتٌ نورانية في صدقِ العبودية وفقه الجندية والعمل للدين، ربَّى النبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابَه فكانت واقعًا عمليًا في حياتِهم فكانوا أهلَ النصرِ والتمكينِ في الأرض، والفضل والسبق عند الله -عز وجل- في الآخرة " [[10]](#footnote-10)

و لنستحضر هذا الموقف من مواقف الصحابة -رضي الله عنهم- الذي فهموا هذا الدرس النبوي، لما وُلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أمْرَ المسلمين، أرسل رسالة لأبي عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- في أرض الشام يأمُرُه بعزل خالد بن الوليد -رضي الله عنه- عن إمارةِ الجيش وأن يتولى أبو عبيدة مكانَه، فكتم أبو عبيدة الأمر حتى لا يوهنَ ذلك من عزائمِ الجيش في مواجهتهم للروم، وانتهت المعركة وفتح الله دمشق حتى وصل الأمر إلى خالد بن الوليد -رضي الله عنه.

فدخل على أبي عبيدة قائلًا:

" يغفر الله لك يا أبا عبيدة أتاك كتابُ أميرِ المؤمنين بالولاية فلم تُعْلِمْني وأنت تصلي خلفي والسلطانُ سلطانُك؟"

فقال أبو عبيدة:" وأنت يغفرُ اللهُ لك، والله ما كنت لأعلِمَكَ ذلك حتى تعلمه من عند غيري، **ما سلطانُ الدنيا أريد وما للدنيا أعمل وإن ما ترى سيصيرُ إلى زوالٍ وانقطاع، وإنما نحن إخوانٌ وقُوَّامٌ بأمر الله وما يضرُ الرجل أن يلي عليه أخوه في دينِه ولا دنياه**"

رجال عرفوا قدر الآخرة فهانت في أعينِهم الدنيا، كلمات نورانية يجب أن تكون واقعًا عمليًا نحيا به ونتربى عليه.

**الخاطرة الثالثة:** "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"( الرعد: 11)

علينا أن نصلحَ أحوالَنَا مع الله وأن نسعىا لإصلاح غيرِنَا وأن نعلمَ أن كلاَّ مِنَّا على ثغرٍ من ثغور الإسلام؛ وأن يحفظ كلٌّ مِنَّا ثغرَه حتى لا يتسربَ الفسادُ من بين يديه وحتى لا يُؤتىا الإسلامُ من قِبَله.

 نحتاج أن تتغير قلوبُنا، عبادتُنا، أخلاقُنا، معاملاتُنا وفقاً لمنهج الله حتى يغيرَّ الله ما حلَّ بنا من ضعفٍ وهوان .

فيا من تتألمُ من ذلك الواقع المرير وتبكي لفقدِ المقدسات وتسلطِ الأعداء وضياعِ العزِّ والأمجاد؛ اعلم أن التغيير المنشود لتلك الأحوال لن يحدث إن لم تتغير أنفُسُنا للحال الذي يرضاه الله، لن يكون التغيير بمجرد الأمنيات، بل يكون بالأعمال الصالحة ومعالجة الانحرافات ومجاهدة النفس والشهوات.

 إن لم تستبدل تلك الأوقات التي نضيعها على وسائل اللهو والقيل والقال نستبدلها بالعلم والعمل والبذل والبناء، لن تتبدَّل الأحوال.

و لا يأس من روح الله، فدينُ الله غالبٌ في النهاية، والإسلامُ منصور لا محالة وباقٍ إلي قيام الساعة.

" كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"( المجادلة: 21)

**الخاطرة الرابعة:**

تأملتُ عندما كنا ننطلق ما بين لقاءات وندوات وحلقات قرآن، وجلسات علم، قد يصيبُ البعضَ أحياناً ركونٌ إلى النفس ورؤية للعمل، فيركن الإنسان إلى نفسه ويطمئن إلى حولِه وقوتِه ويثقُ بمالِه وعملِه وصحتِه أو أن يُسندَ الأمرَ إلى عقلِه أو قوتِه أو علمه أو سعيِه وبذلِه ونشاطِه .

فكل هذا قد يتوقف في لحظة،قد يُحرم الإنسان بما لديه من مواهب وقدرات ويُحبس في مكانه لا يستطيع حراكاً، ولا يملك لنفسِه صرفاً ولا عدلاً، هذا يعلمنَا الافتقار إلى الله عزوجل وحده.

لو نظر العبدُ مِنَّا إلى حالِه في يومه وليلته لعلم من نفسه تمامَ حاجتِه لمعونة ربِّه في كلِّ لحظة، وعدمَ استغنائِه عن اللهِ طرفةَ عين، فمهما كُنَّا نملك من طاقات وقدرات فهى من عند الله وحده، لن نستطيع القيام بأي عمل إلا بتوفيق الله وإعانته، كم من المرات بدأنا بالأذكار ولم نكملها؟

بل كم من المرات شرعنا في بعض العبادات وانقطعنا عنها؟

كم مرة غفلنا عن استكمال ترديد الأذان مثلاً وهو ذو وقت قصير جداً.

لا بد أن يكون شعارنا في الحياة: " رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْـزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ"( القصص:24)

أن يكون شعارنا في الحياة: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "( الفاتحة:5 )

هذا الافتقار هو حقيقة العبودية، العبادة هي غاية الحب مع غاية الخضوع والذل، فمن أحببتَه ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له.

ومن خضعت له بلا محبه، لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًّا خاضعًا

فالعبدُ ذليل لمولاه بكل وجه من وجوه الذل .

ذليلٌ لعزِّه، لربوبيته فيه وتصرفِه، ذليلٌ لإحسانِه إليه وإنعامِه عليه، وتوفيقِه له وإعانتِه، لا غنى له عن ربِّه في علومِه ومعارفِه، في هدايتِه وأعمالِه، في جلبِ أي نفعٍ له ودفعِ أي ضررٍ عنه، لا حول له ولا قوه إلا بالله وحده .

قال ابن القيم -رحمه الله- " ثم إن القلب يعرضُ له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلفِ ولابد؛ وهما الرياء والكبر، فدواءُ الرياء " إِيَّاكَ نَعْبُدُ " ودواء الكبر " وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "، وكثيرًا ما كنتُ أسمعُ شيخَ الإسلام ابن تيمية -قدَّسَ اللهُ روحَه- يقول:

**" إياك نعبد" تدفعُ الرياء، "وإياك نستعين" تدفع الكبرياء ".[[11]](#footnote-11)**

هذه المنزلة التي يصلُ إليها القلب هي سرُّ حياتِه وأساسُ إقبالهِ علىٰ ربِّه سبحانه ولم يدرك العبدُ ذلك إلا بأمرين:

الأمر الأول: إدراكُ عظمة الخالق سبحانهُ ومشاهدة آثار أسمائه وصفاته.

فصفاتُ الأُلوهية توجبُ محبتَهُ والشوقَ إليه والأنس به والمنافسة في قربِه والتودد إليه بطاعته.

وصفاتُ الربوبية توجبُ التوكلَ عليه والافتقارَ إليه والاستعانةَ به والخضوعَ والانكسارَ لهُ.

الأمر الثاني: إدراكُ ضعفِ المخلوق وعجزِه، وأن يدركَ العبدُ أن كلَّ ذرة من ذرَّاتِه في فقرٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلىٰ ربِّه، فمن عرف قدرَ نفسِه وعرف تقصيرَها وعجزَها وأنه مهما بلغَ من الجاهِ والسلطانِ أو المالِ والمتاعِ أو القوةِ والبذلِ أو العقلِ والعلمِ والفهمِ؛ فهو عاجزٌ ضعيفٌ لا يستغنىٰ عن اِلله طرفة عين.

قال ابن تيمية رحمه الله: "كلُّ من علَّق قلبَه بالمخلوقاتِ أن ينصروه أو يَهْدُوه خضعَ قلبُه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وأن أسْرَ القلبِ أعظمُ من أسْرِ البدن واستعبادَ القلب أعظمُ في استعبادِ البدن"[[12]](#footnote-12) .

**الخاطرة الخامسة: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"(يوسف:21).**

اللهُ عز وجل قادرٌ علىٰ إظهارِ دينِه، ونصرِ شريعتِه وإعلاءِ كلمتِه.

كنَّا سنوات طويلة بفضل الله عز وجل ندعوا إلىٰ الله، نحذر الناس من المعاصي والآثام، ندعوهم لترك المحرمات، نبين لهم خطر السيئات؛

وقلة من تستجيب بعد معاناة .

وفي لحظة توقفت كثير في مظاهر الفساد علىٰ مستوىٰ العالم كله

توقفت فاعليات اللهو علىٰ جميع المستويات: (الملاهي الليلية\_ السنيمات \_المقاهي\_صالات عروض الأزياء) .

قَلَّتْ صور الاختلاط المحرم وامتنع الناس حتىٰ عن المصافحة بالأيدي ولطالما قلنا لهم لا تجوز المصافحة بين الرجال والنساء، وارتدىٰ بعض النساء النقاب خوفًا من المرض، وارتدى الجميع رجالًا ونساءًا الكمامات الواقية.

وهنا عبرة عظيمة، لو تساءنا ماذا لو أرادت أعظم الدول قوة وإعلامًا ووسائل ترهيب وترغيب، أن تمنع هذه المعاصي على هذا النحو؟ هل كانت تستطيع فعل ذلك؟

كلا والله، لو اجتمعت دول العالم ما كانت تستطيع ولكن بقدرة الله القدير القاهر، بوجود بهذا الفيروس الضعيف تتوقف كل هذه المعاصي .

وكأنه السبب الذي حَبَسَ العصاة عن معاصيهم، "وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ "( البقرة: 216)

فهذا الوباء مع ما فيه من شر على أهل الأرض إلا أن هناك جوانب من الخير، والله تعالى في خلقه وتقديره حكيم عليم .

فالجميع استشعر ضعفَه وفقرَه أمام قدرة الله .

ونحن أهل الدعوة مهما بذلنا لهنا الدين ودعونا إلى ربِّ العالمين فهذا من فضل الله علينا، واللهُ تعالى قادر على نصرة دينِه، والدين منتصر بنا أو بغيرنا، فاللهم استعملنا ولا تستبدلنا .

لذالك كانت هذه النداءات الربانية هي العُدَّة الإيمانية للداعية

"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر" ( المدثر: 1)

قم بجد ونشاط وبكل ممكن ومتاح لا تقف موقف المتفرج، لابد من الإيجابية والعمل والبذل .

"وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ" (المدثر:3)

 عظِّم ربَّك واجعل رضاه قصدك .

"وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" (المدثر: 4)

 كناية عن طهارة القلب والخلُق والعمل .

"وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" (المدثر: 5)

التخلي عن كل قبيح من الأقوال والأعمال والأخلاق.

"وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ" (المدثر: 6)

إنكار للذات وعدم المنِّ بما نقدمه من جهد أو استكثاره وتعظيمه، بل احتساب الأجر.

ونسيان الإحسان في جناب الله عز وجل .

واستشعارٌ بِّأن ما نقدمهُ هو من فضله تعالىٰ وعطاياهُ

وأنه اصطفاءٌ وتكريمٌ يستحق الشكر والحمد لا المنَّ والاستكثار

"وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ" (المدثر: 7)

 فالصبر هو الزاد الأصيل في هذه الرحلة ومفتاح النصر في هذه المدافعة مع شهوات النفس وأهواء القلب وخطط الأعداء .

هذه بعض الخواطر ولا زال للحديث بقية، (ومن عرف قدر مطلوبه.... هان عليه بذل مجهوده)

**الخاطرة السادسة:**

 ما من إنسان في هذه الحياة إلا وهو يتقلبُ بين حالتين؛ لا ينفك عنهما، إما أن يكسوه اللهُ لباس النعمة والسرَّاء وإما أن تصيبه الضراء، لا يخلو أحد من هاتين الحالتين؛ قال تعالى:" وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ " (سورة الأنبياء 35).

و طبيعة الإنسان كما بيّن الله في كتابه في هاتين الحالتين: قال تعالى:" وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ " ( سورة هود 9:10)

ها هو حالُ الإنسان يسرف في الفرح بالسراء ويظن أن الله قد اختصه بها لكرامتِه عنده، وفي المقابل يجزع ويتسخط عند الضراء، هذه هي طبائع الإنسان إلا صِنفًا موفقًا من البشر استثناه الله؛ قال تعالى:" إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ "(سورة هود 11)

إنهم المؤمنون الصادقون، صدقوا مع الله، شكروا وصبروا في السراء والضراء، فوفقهم الله لأحسن الأقوال والأحوال والأخلاق والأعمال.

يعبدون الله على أي حال، هؤلاء أطيب الناس عيشًا وأحسن الناس حالًا، المؤمن حقًا هو أسعد الناس حظًا بربِّه وأكمل الناس استمتاعًا بحياته وأعقل الناس تصرفًا، يحمد الله -عز وجل- على نعمة التوحيد والإيمان والعلم والقرآن والهداية والثبات، راضٍ بما عنده من نعمة، صابر على ما ابتُلي به من مصيبة .

قال صلى الله عليه وسلم:" عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له"[[13]](#footnote-13)

 و من ذا الذي عاش في هذه الحياة ولم يبتلى؟!

حتى الأنبياء هم أشد الناس بلاءًا وامتحانًا، بل يُبتلى المرء على قدر دينِه، ليس لنا إلا الصبر والرضا واتخاذ الوسائل المشروعة لدفع هذا البلاء، فنَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، نفرُّ بالتوكل، بالاستعانة بالله، نسعى في رفع البلاء عن أنفسنا حتى لا نقع فريسة لليأس أو القنوط، فيضعف الإنسان ويجزع وينهزم ويستولى عليه الشيطان.

الثقة بالله، حسن الظن، انتظار ما عند الله، الاستغفار، الدعاء، التضرع، الصبر، انتظار الفرج، احتساب الأجر مهما كانت المصيبة؛ قال تعالى:" قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ " ( سورة الأنعام 64)

إنها سُنَّة الله الماضية في خلقِه، وأحكامه الشرعية في كتابه؛

قال تعالى:" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ " (سورة البقرة 214)

إن المسلم الصادق هو الذي يحقق العبودية لله -عز وجل- في كل وقتٍ وفي كل حين وفي كل مكان، فإن المحن تكون في حقه مِنحًا وتنقلبُ الآلام آمالًا، والأحزانُ أفراحًا، يجعل الله له من كل همٍّ فرجًا ومن كل ضيقٍ مخرجًا.

**الخاطرة السابعة والأخيرة: العبودية وظيفة العمر**

عَنْ أبِي ذَرٍّ، قالَ: قُلتُ يا رَسولَ اللهِ،: " أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرْضِ أوَّلُ؟ قالَ: المَسْجِدُ الحَرَامُ قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: المَسْجِدُ الأقْصَى قُلتُ: كَمْ بيْنَهُمَا؟ قالَ: أرْبَعُونَ سَنَةً، وأَيْنَما أدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهو مَسْجِدٌ"[[14]](#footnote-14)

العبودية في كل وقت وفي كل مكان وعلى أي حال، علامَ نحمل الهموم والله بيده مقاليد الأمور، علامَ نحزن والدنيا دار كبدٍ وبلاء لا دارُ استقرار واستواء، وكلُ عسرٍ فهو محاط بين يسرين .

سَهِرَت أَعيِنٌ وَنامَت عُيونُ في أُمورٍ تَكونُ أَو لا تَكونُ.

إِنَّ رَبّاً كَفاكَ بِالأَمسِ ما كانَ سَيَكفيكَ في غَدٍ ما يَكونُ.

قال تعالى:" مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" (سورة آل عمران 179)

قال تعالى:" لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ "( سورة النور 11)

الله -عز وجل- بحكمة يقدِّر على عباده بعض المقادير التي في ظاهرها الشر والضرر ولكن في ثناياها الخير وعاقبتها إلى خير، فلا يأس مع رحمةِ الله وحسنِ تدبِيرِه، ولا قنوط مع لطفِه وحكمة تقديرِه.

اللهم اغفر لنا ما قدَّمنا وما أخَّرنا وما أسررنا وما أعلننا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم والمؤخر وأنت على كل شيء قدير .

اللهم تقبل توبتنا واغسل حوبتنا واهد قلوبنا وثبت حجّتنا وسدد ألسنتنا واسلل سخائم صدورنا.

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

1. ) البيت للشاعر لَبيد بن ربيعة من قبيلة هوازن، صحابي وهو أحد أصحاب المعلقات، (توفي 41 هـ / 661م). [↑](#footnote-ref-1)
2. ) صحيح البخاري (1423)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. [↑](#footnote-ref-2)
3. ) أخرجه أحمد في الزهد موقوفا على الحسن قال: حدثنا محمد بن فضيل عن العلاء بن المسيب عن الحسن قال: ((تفكر ساعة خير من قيام ليلة)) [ ص 272 ]. [↑](#footnote-ref-3)
4. ) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كتاب: التوكل وَالِاعْتِبَارِ. [↑](#footnote-ref-4)
5. ) تفسير ابن كثير، الجزء الثاني، ص 112 [↑](#footnote-ref-5)
6. ) لا يُنسب شيء للسماء، فالسماء مخلوقة من المخلوقات، لا تملك نفعًا و لا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. [↑](#footnote-ref-6)
7. ) خواطر قلب، م. سامح بسيوني ص 45 [↑](#footnote-ref-7)
8. ) صحيح الجامع (٥٥٢١). [↑](#footnote-ref-8)
9. ) رواه البخاري (٢٨٨٧). [↑](#footnote-ref-9)
10. ) خواطر قلب، م سامح بسيوني ص 61 [↑](#footnote-ref-10)
11. ) مدارج السالكين بتصرف يسير . [↑](#footnote-ref-11)
12. ) مجموع الفتاوى (781581\01) [↑](#footnote-ref-12)
13. ) صحيح مسلم (2999). [↑](#footnote-ref-13)
14. ) صحيح مسلم (520). [↑](#footnote-ref-14)